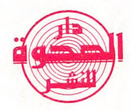
أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب

في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر

بقلم

الدكتور عبد الحليم عويس



دار الصحوة
حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين
شارع جمال عبد الناصر
القاهرة

أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب
في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر

بقلم
الدكتور عبد الحليم عويس

دار الصحوة
حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين
شارع جمال عبد الناصر
القاهرة

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الصحوة
حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين
شارع جمال عبد الناصر
القاهرة

توطئة:

من الحقائق المقررة في (قضايا الحضارة) أنها لا تخضع لذلك الوضع الحاسم الذي تخضع له قضايا التاريخ.

فبينما يستطيع المؤرخ - بأدوات البحث المعتمدة - أن يصل إلى تحديد قريب من الصحة لكل واقعة تاريخية يدور بحثه حولها.. فإن الباحث في الحضارة لا يستطيع أن يصل إلى هذا الحد الواضح، وهو يعالج القضايا الحضارية؛ ولاسيما إذا كان الأمر متعلقا بعلاقة (التأثير والتأثر) التي تربط موجة فكرية سابقة، بموجة أخرى لاحقة.

وحسب (عالم الحضارة) في هذا المجال أن يرصد السمات التي تميزت بها كل موجة؛ ثم يبحث - مستعينا بالتاريخ - عن المعابر التي التقت عندها الموجتان، بحيث يقنع قارئه بخلو استنتاجاته من التكلف والتعسف ويضع يده على الخيوط المرئية والمستنتجة التي جعلته يقرر أن هناك تأثيرا وتأثرا بين السابق واللاحق.

حقائق تاريخية ثلاث:

وفي مقدمة بحثنا هذا نستطيع أن نضع أيدينا على ثلاث حقائق تاريخية مؤكدة:

أولاها: تظهر على الطرف الأول «المؤثر» وهي أن مصلحا إسلاميا قد ظهر في جزيرة العرب، على فترة من الجاهلية المستأنفة - ولد بالعيينة شمال غربي الرياض سنة ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) واسمه محمد، واسم أبيه عبد الوهاب، مجمع على مزاياه الموروثة والمكتسبة، وعلى خلائقه الفاضلة[١]، «وكان محمد هذا سباقا في عقله وفي جسمه، حاد المزاج، فقد استظهر القرآن قبل بلوغه العشر، وبلغ الاحتلام قبل اتمام الأثنتي عشرة سنة»[٢].!!

وقد عاش محمد بن عبد الوهاب - موضوع الحقيقة التاريخية الأولى - حياة حافلة بالتعلم والارتحال في طلب العلم، والجهاد في سبيل ما اهتدى إليه من حقائق رأى فيها صلاح حال الأمة الإسلامية، وسبيل عودتها إلى مكانتها التاريخية.. حتى وافته منيته سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢ م) بعد أن شهد آثار اصلاحه في الجزيرة العربية، وبعد أن انتقل البدو - أمام عينيه - من حياة الجاهلية إلى حياة الحاضرة، وأنارت نجد والجزيرة العربية بدعوته العظيمة[٣].

---

(١) أحمد عبد الغفور العطار: محمد بن عبد الوهاب ط ٣ - مكتبة العرفان بيروت ص ٣١.
(٢) أحمد بن حجر الطامي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب - مطبعة الحكومة بمكة ١٣٩٥ ص ١٥.
(٣) أحمد عبد الغفور العطار محمد بن عبد الوهاب ١٠١.

والحقيقة التاريخية الثانية... حقيقة تظهر على الطرف الآخر «جانب التأثر»، ونحن نرى هذه الحقيقة في تلك الموجات الإصلاحية الإسلامية التي بزغت في أرض الجزائر؛ والتي بدأت تأخذ صفة تيار عام بعد أن كانت جهودا فردية. وقد ظل هذا التيار العام ينمو حتى أصبح يمثل أقوى تيار في الجزائر، بحيث تمكن هذا التيار (السلفي) الذي كان مجرد جهود فردية من أن يتغلب على كل التيارات المنحرفة، ويتغلب على الاستعمار الفرنسي نفسه، ويعود بالجزائر إلى الإسلام عقيدة وإلى العروبة لغة... وليس هذا التيار سوى (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) صاحبة الفضل الأكبر في تحقيق استقلال الجزائر.

وتأتي الحقيقة الثالثة: وهي حقيقة تتعلق بالظروف المتشابهة في النواحي العقدية والاجتماعية والفكرية في كلتا المنطقتين... فبينما كانت الجزيرة العربية - خلال القرن الذي ظهرت فيه حركة الإمام ابن عبد الوهاب، كما يحدثنا مؤرخوها الثقات كابن بشر وابن غنام والألوسي مرتعا للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصحيحة.. ويحج فيها إلى القبور، ويطلب من الموتى الحاجات، ويستغاث بهم لدفع الكروب[1].. بينما هذا... كانت الجزائر خلال العصر الذي بدأت تظهر فيه اشعاعات حركة الإمام ابن عبد الوهاب خارج الجزيرة، أي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر تعج بكثير من الخرافات وصور الوثنية وسيطرة الصوفية والمبتدعة على أرضها.

انها ظروف متشابهة جمعت بين أرض الجزيرة في آسيا، وأرض الجزائر في أفريقيا... وكما كانت صور الوثنية والتخلف والظلام سببا في كثير من مراحل التاريخ.. لظهور دعوات التنوير والتوحيد؛ كذلك كانت هذه الظروف داعية لكي تتلقف الأرض العطشى في الجزائر دعوة الاصلاح التي جاءتها من أرض الجزيرة العربية. لتردها إلى الكتاب والسنة مرة ثانية، كما حملتها إليها أول مرة.

* * * * *

أجل... تلك حقائق تاريخية ثلاث لا يكاد المؤرخ يصل إلى درجة من الشك فيها؛ لكن هذه الحقائق - مع ذلك - لا تكفي (الباحث الحضاري) الذي يناط به بيان مدى اشعاعات الظاهرة (المؤثرة) في الموجة (المتأثرة). لكي يصدر حكمه بوجود علاقة (التأثير والتأثر)؛ بل انه مضطر أن ينهج منهج (عالم الاجتماع) الذي يجمع مفردات الظاهرة من حالات التوافق والتقارب المتناثرة هنا وهناك ليصدر - بعدها - رأيه.. راجيا في النهاية أن تكون النتائج التي انتهى إليها أقرب إلى اليقين. وهذا ما نأمله بإذن الله.

---

(١) انظر الشيخ محمد بن عبد الوهاب: أحمد أبو طامي ص ١٩ (نقلا عنه).

عصر الإصلاح في الجزيرة العربية:

كان القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر المسيحي هو بداية عصر الدعوة الاصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وفي هذا القرن كان العالم الإسلامي يسير على النهج نفسه الذي سار عليه في سابقه من انفصال عن الحقيقة الإسلامية، ومن سيطرة مفاهيم مغلوطة على العقل الإسلامي، ومن تمزق سياسي وفوضى اقتصادية وهبوط اجتماعي. بحيث أصبح - كما يسميه المفكر الجزائري مالك بن نبي - في حالة (القابلية للاستعمار)[١]... إنها الحالة التي يتوافر فيها مواد خام بشرية تمتاز (بالبطالة) و(بالجهل) و(بالانحطاط الخلقي) المتولد من انحطاطين: أحدهما: فكري، والآخر نفسي...

ويصور هذه الحالة أبلغ تصوير الكاتب الأمريكي (لثروب ستودارد) فيقول: «في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركه؛ فاربد جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربي واستغرقت الأمم الإسلامية في اتباع الأهواء والشهوات وماتت الفضيلة في الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال[٢].

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء، فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفا من الخرافات وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون في كل مكان، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضربا من المستهزئات. وعلى الجملة بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطا بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهي الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان[٣].

---

(١) انظر شروط النهضة فصل (معامل القابلية للإستعمار) ص ٢٢٩ - الطبعة الثالثة
(٢) حاضر العالم الإسلامي جـ ١ ص ٢٥٩
(٣) المرجع السابق ٢٥٩ . ٢٦٠

ونتيجة لهذه الحالة سيطر الضعف الحضاري والتفكك السياسي، بحيث لم ينته القرن إلا وكان الاستعمار يبحر بسفنه في طريقه إلى تلك المنطقة التي توافر لديها (معامل القابلية للاستعمار).

كانت روسيا تتقدم إلى العالم الإسلامي من أركان مختلفة، فقد زحفت على بلاد فارس، التي كانت مقسمة إلى أحزاب هي (الأفشار والزند والقاجار) كما زحفت روسيا أيضا - على بعض أملاك الدولة العثمانية في أوربا، ولم يقتصر زحفها على هذين الركنين؛ بل انها أخضعت سهوب (القرغيز)، فعزلت خانيات التركستان الإسلامية وما وراء النهر، وخراسان الأوزبكية، واحتلت بلاد الكرج (جورجيا) متقدمة إلى ما وراء القوقاز.

واستولت على جميع أملاك الترك شرق الدنيستر(١).

أما فرنسا وبريطانيا فقد بدءا في هذا القرن سباقهما لتقسيم العالم الإسلامي الذي أصبح يمثل (الرجل المريض)...

وكانت الشرارة الأولى هي: الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م، وهجوم نابليون بونابرت - قائد الحملة - على الشام سنة ١٧٩٩ م واستيلائه على يافا.

دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب وركائزها:

في هذه الظروف ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، فكان أول داعية خلال هذا العصر يضع يده على مواطن الداء الحقيقي، الذي يتمثل في طبيعة ما آل إليه بناء الأمة الداخلي فكريا وعقديا ونفسيا... فبينما كان العالم الإسلامي مستغرقا في هجمته ومدلجا في ظلمته على النحو الذي صوره «ستودارد».. إذ بصوت ابن عبد الوهاب يدوي موقظا للنائمين، داعيا المسلمين إلى الرجوع إلى سواء السبيل... فلم تلبث دعوته أن اتقدت واشتعلت واندلعت ألسنتها في كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي، ثم أخذ يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامي القديم والعز التليد، فتبدت تباشير صبح الإصلاح، ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الإسلام(٢)... ولم تكن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب إلا دعوة إلى العودة الصادقة الواعية إلى الحقيقة الإسلامية في مصدريها الثابتين الخالدين: الكتاب، والسنة الشريفة، ودعوة - في نفس الوقت - إلى التخلص مما خلفته قرون التخلف من شوائب أصابت بناء الإنسان المسلم الداخلي... فأصبح مسلما (مشركا) (يقرأ القرآن ويؤمن بالخرافات) (ويصلي لله، ويتقرب لعبيده) إلى غير ذلك من الشوائب التي كانت سببا في انحطاط المسلمين.

---

(١) أطلس العالم الإسلامي ص ٢٨.

(٢) ستودارد: المرجع السابق ص ٢٦٠.

وبالتالي، وانطلاقا من نواحي هذا الخلل، ركز محمد بن عبد الوهاب اهتماماته الاصلاحية على النواحي التالية: -

أولا: تصحيح العقيدة الإسلامية في فكر المسلمين وتطهيرها من مظاهر الشرك التي علقت بها، وبإيجاز: إعادة المسلمين إلى عقيدة (التوحيد) كما وردت في الكتاب والسنة، دون تشبيه أو تجسيم أو تعطيل أو تأويل. و(التوحيد) لا يكون كذلك - في الإسلام - إلا بتوحيد الربوبية، فلا خالق ولا رازق إلا الله، وبتوحيد الألوهية، فلا دعاء ولا نذر ولا استعانة إلا بالله، وبتوحيد الأسماء والصفات، فيوصف الله بما وصف به نفسه، واعتقاد أن الله (ليس كمثله شيء) وقد بلغ من عناية الشيخ بالعقيدة حدا كبيرا لدرجة أنه قام بتتبع مجالات تصحيحها، ومقاومة صور الإشراك في كل كتاباته وخطبه ورسائله. وكانت العقيدة هي المحور الذي تدور حوله كل اهتماماته، وذلك بالإضافة إلى الكتب والرسائل التي تكاد تفرد لقضية التوحيد ككتابه (التوحيد) الذي جاء في ستة وستين بابا... سد فيها الشيخ كل منافذ الشرك. ورسالة (كشف الشبهات)، ورسالة (ثلاثة الأصول) ورسالة (القواعد الأربعة) وكتاب (فضل الإسلام) وكتاب (أصول الإيمان) ومجموعة رسائله في التوحيد والإيمان التي بلغت ثلاث عشرة رسالة. وكتاب الكبائر، ورسائله الاحدى وخمسين التي وردت في تاريخ الشيخ ابن غنام الأحسائي، وفي الدرر السنية في الأجوبة النجدية.. والتي تناولت جوانب خمسة تتصل كلها بالعقيدة، كبيان أنواع التوحيد، وبيان معنى لا إله إلا الله، وما يناقضها من الشرك، والأشياء التي يكفر مرتكبها[1].

ثانيا: تصحيح عقيدة المسلمين - أيضا - في مجالات التوسل والشفاعة والاستغاثة.

ثالثا: رفض الانحرافات التي أقحمت على الإسلام بتأثير جماعة (الصوفية) التي كانت من أقوى أسباب تخلف العالم الإسلامي.

رابعا: انكار زيارة القبور والبناء عليها أو اللجوء إلى الموتى - مهما كان قدرهم - في تحقيق أمر... لأن هذا وثنية تدخل في باب الشرك بالله. أما زيارة القبور دون شد الرحال إلى مقبرة خاصة.. بهدف التذكر والاعتبار والدعاء للميت والترحم عليه فلا شيء فيه.

خامسا: مقاومة الخرافات والبدع بكل أشكالها، وأغلبها مما انتشر أيام الفاطميين في المغرب (٢٩٨ - ٣٦١ هـ) ومصر (٣٦١ - ٥٦٧ هـ)، ومن رواسب عصور التخلف. ومن هذه البدع التي أنكرها الشيخ: بدعة الاحتفال بالمولد النبوي، وبدعة المحمل، وغيرها من البدع التي روجها الطرقية والشيعة.

---

(١) انظر هذه الرسائل في (القسم الخاص للرسائل الشخصية) من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب - طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وانظر كذلك بقية أعمال الشيخ في هذه الطبعة.

سادسا: فتح باب الاجتهاد- عند توافر وسائله- وعدم التعصب لمذهب معين، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة.

سابعا: ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء فريضة الجهاد التي خمدت في نفوس المسلمين.

* * * * *

تلك هي أبرز الجوانب التي ركز الشيخ ابن عبد الوهاب عليها.. باعتبارها الأصول التي تحيا بحياتها بقية أركان الإسلام وآدابه وفروعه.

وقد حرصنا على ذكرها لتكون الأصل الذي تقارن به اتجاه الحركة الإسلامية الاصلاحية في الجزائر.

جذور دعوة الاصلاح الإسلامي في الجزائر:

ذكرنا أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا تزيد عن كونها دعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء في القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فهي بهذا الإطار ليست بدعا في كل حركات الاصلاح؛ بل هي تلميذة ومتبعة لحركات الاصلاح السابقة، كحركة الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ) وحركة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) ومحمد بن قيم الجوزية (٦٩١ -٧٥١ هـ).

وبالتالي: فان لنا أن نستنتج أن كل موروثات الإسلام الصحيح الذي يطلق عليه - عادة - (الاتجاه السلفي) - والتي كان لها بالتأكيد - وجود كبير في الجزائر منذ دخل جيش التابعين الذي فتحها بقيادة أبي المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢ هـ).

... هذه الموروثات النبوية الصحيحة قامت بدور كبير في التمهيد لانتشار دعوة الإصلاح الإسلامي في الجزائر خلال القرن الرابع عشر للهجرة، والتي كان رائدها الأول في التاريخ الإسلامي الحديث هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ويلخص أحد الكتاب الجزائريين المعاصرين - صادقا - حقيقة (الدعوة السلفية) فيقول: إنها لا تزيد عن كونها التطبيق الصحيح للحديث النبوي الشريف الذي ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام - في خطبة الوداع - حين قال: «تركت فيكم ما أن اعتصمتم به لن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»[١].

ويرى هذا الكاتب الجزائري: أن (السلفية) بهذا المعنى ذات امتداد أصيل في الجزائر، وأنها ما كان لها أن تظهر كحركة مستقلة تبدو وكأنها (مذهب إسلامي) إلا لأن

(١) المهدي البوعبدلي مقال (عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر) بمجلة الأصالة الجزائرية عدد صفر ١٣٩٨ هـ (برقم ٥٣).

الناس ابتعدوا عن حقيقة الإسلام. بعد أن ظهرت مختلف المذاهب البدعية التي تنتمي إلى ملل ونحل بعيدة عن الإسلام. والتي كان من بينها مذهب التصوف. الذي أسرف بعض أئمته وتغالوا في الدعوة إلى التحرر من التقاليد واسقاط التكاليف. وزاد الأمر نعكرا عندما ظهرت لكثير من أئمة التصوف طرق، أقبل عليها كثير من العوام.. فعندئذ ظهر رد فعل الفقهاء الذين ضاقوا ذرعا بهذه التعاليم. وانضم إليهم المحدثون... فاتهموا المتصوفة بالمروق عن الدين، وبأن تعاليمهم مستمدة من مذاهب غير إسلامية[1].

ويرى الكاتب (وهو من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ويشغل الآن منصب نائب رئيس المجلس الإسلامي الأعلى) أن تاريخ السلفية بالجزائر يعود - بعد الأجيال الأولى - إلى الفقيه الجزائري أبي الفضل النحوي. من علماء القرن الخامس الهجري. ودفين قلعة بني حماد، العاصمة الأولى لدولة بني حماد الزيرية الصنهاجية الجزائرية التي حكمت الجزائر بين عامي ٤٠٥ هـ ٥٤٧ هـ.

وفي القرنين السابع والثامن للهجرة ظهر مصلح سلفي آخر انتشرت اراؤه الاصلاحية في الجزائر، وهو أبو الحسن علي بن عبدالحق الزويلي الشهير بالصغير.. ومع أن المغرب والأندلس بصفة عامة يغلب عليهم مذهب الإمام مالك.. إلا أن المصلح الصغير دعا إلى فتح باب الاجتهاد، متأثرا فيما يبدو - بمعاصره الإمام ابن تيمية الذي عمت شهرته العالم الإسلامي.. وقد توفي ابن الصغير سنة ٧١٩ هـ، أي: أنه عاصر ابن تيمية قرابة ستين سنة.

وكان من تلامذة المصلح الصغير تلميذ سار على دربه وحمل دعوته. وهو العالم الجزائري الحافظ ابن مرزوق الحفيد - من علماء القرن الثامن - الذي كان يشيد بأستاذه، وقد رد على معاصر جزائري له يدعى قاسم العقباني التلمساني - كتب رسالة ينتصر فيها لمتصوفة زمانه... وقد سمى ابن مرزوق رسالته: «النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص»... وعقب هذا دارت معركة بين الاتجاهين السلفي والصوفي أرخت لها كتب النوازل (الوقائع) ككتاب: «الدرر المكنونة في نوازل مازونة»، وفتاوى أحمد بن يحيى الونشريسي المجموعة في (المعيار).

وقد شارك في المعركة كثير من الجزائريين منهم (عبد الرحمن الوغليسي) فقيه بجاية[2] المشهور، وسعيد العقباني التلمساني، وعيسى الغبريني البجائي، ابن أحمد الغبريني صاحب كتاب «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية»[3].

(١) المكان السابق.

(٢) بجاية: مدينة بالشرق الجزائري كان لها ماض حضاري مزدهر وفيها تعلم ليوناردفنشي وكانت عاصمة الجزائر ووريثة القيروان مدة قرن من الزمان.

(٣) طبع هذا الكتاب طبعتين: أحدهما: جزائرية والأخرى لبنانية وعندي نسخة من الطبعة الجزائرية

وخلال القرنين التاسع والعاشر للهجرة اتخذت الدعوة السلفية قاعدتها بنواحي بجاية في الشرق الجزائري، وكانت قرية (تامقرة) المنطلق الأساسي للدعوة، إذ كانت هذه القرية تضم منارة علمية جزائرية عالية المكانة، وهي: (معهد يحيى العبدلي)، وفي هذا المعهد نبغ العالم السلفي (أحمد زورق) بعد إقامته الطويلة بين تلمسان (بالغرب الجزائري) والعاصمة قسطنطينة، وما شاهده من شيوع الفوضى العقدية التي أدخلها العوام، وركب موجتها المشعوذون من محترفي المتصوفة، وقد ساعد (أحمد زورق) على النجاح استقامته ونزاهته وتضلعه في علوم الحديث والتفسير والفقه، فضلا عن تأثيره في مجموعة من الطلبة الذين حملوا رسالته على رأسهم ابن علي الخروبي - دفين الجزائر، وهو ممن أخذوا الدعوة السلفية عن الشيخ أحمد زورق.

وقد ترك «الخروبي» تأثيره على أسرة جزائرية اشتهر معظمها بالسلفية، وهي أسرة الأخضري التي نبغ فيها سلفي جليل هو (عبد الرحمن الأخضري) المتوفى سنة ٩٥٣ هـ، والمولود (ببنطيوس الزاب) بالشمال الغربي الجزائري، وكانت له رسائل في الفلك ككتابه (السراج في الفلك) و(أزهار المطالب في علم الأرسطرلاب) وتربو تآليفه في بقية الفروع على الثلاثين[١].

ولكي نعرف قيمة الدعوة السلفية التي قام بأعبائها (عبد الرحمن الأخضري)، فإنه يجب أن نتصور حالة الجزائر في ذلك العصر، أي: خلال القرن العاشر الهجري، فإن بجاية (العاصمة الحضارية للجزائر) كانت قد سقطت بيد الإسبان، وبدأت مدن الساحل الشمالي الجزائري كله تتداعى أمام أساطيلهم، كتنس، ووهران، ودلس، وغيرها. وللأسف، فإن رجال الصوفية كانوا عونا للغزاة ولرؤساء الاقطاع الظلمة، وتسببوا في مزيد من الإنهيار.

وقد قام (عبد الرحمن الأخضري) بالتصدي لهم وكشف ضلالهم في عدد من القصائد أحدها تسمى (القدسية) وتحتوي على ٣٥٧ بيتا. وفيها يقول عن الصوفية:

قد ادعوا مراتبا جليلة ... والشرع قد تجنبوا سبيله.
قد نبذوا شريعة الرسول ... فالقوم قد حادوا عن السبيل.
لم يدخلوا دائرة الطريقة ... فضلا عن دائرة الحقيقة.
لم يقتدوا بسيد الأنام ... فخرجوا عن ملة الإسلام.
قد ملكتْ قلوبهم أوهام ... فالقوم ابليس لهم امام.
كفاك من جميعهم خيانة ... إذ ختلوا الدنيا بالديانة.

(١) المهدي البوعبدلي: مرجع سابق ص ٢٥.

إلى أن يقول: -

من كـان في نيـل الأمـاني راجيـا   وعن شريعـة الرسول نـائيـا.
فـإنـه ملتبس مفتون   وعقلـه مختبـل مجنون.

ثم يتعرض للمتصوف الحقيقي فيصفه بقوله: -

واعـلـم بـأن الولي الربـانـي   لتـابـع السنـة والقرآن.
والفرق بين الافـك والصواب   معرف بـالسنـة والكتـاب.
والشرع مـيزان الأمور كلهـا   وشاهـد لأصلهـا وفرعهـا.
والشرع نور الحـق منـه قـد بـدا   فـانفجرت منـه ينـابيـع الهـدى.

ثم ينتقل إلى وصف حالة البلاد إذ ذاك فيقول: -

هـذا زمـان كـثرت فيـه البـدع   واضطربـت عليـه أمواج الخـدع.
وخسفـت شمس الهـدى وأفلـت   من بعـدمـا قـد بزغـت وكملـت.

وقد حظيت هذه المنظومة بشروح قيمة، أهمها شرح الحسين الورتلاني صاحب الرحلة، لأنه ألقى فيه أضواء على حالة المجتمع الجزائري وأحصى تأثير العادات السيئة التي ألصقت بالدين.

وعلى خطى (الأخضري) ظهر أعلام آخرون عززوا الاتجاه السلفي وذلك خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، ومنهم الشيخ عبد الكريم بن الفكون القسنطيني المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ، وصاحب كتاب (منشورات الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية) وهو كتاب من أحسن ما ألف في بابه، بل فريد في بابه كما يقول الشيخ البوعبدلي.. وهو يبين هدفه من الكتاب في مقدمته، فيقول: «أما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أطلت، وأسواق العلم قد كسدت. فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعي من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة... وروائح السلب والطرد من المولى فائحة».

وقد ظهر خلال العصر بعض (المنظومات) التي اقتفت أثر منظومة الأخضري (القدسيّة) كمنظومة عبد الرحمن بن محمد علي المجاجي، وظهرت بمستغانم منظومة الشيخ محمد بن حواء من علماء القرن الثاني عشر، وقد سماها «سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان» تعرض فيها لتراجم علماء الجزائر. وتكلم عن البدع المنتشرة.

ثم ظهرت رسالة الشيخ/محمد بن عبد الله الجلالي.. كتبها إلى زميله في الدراسة بفاس الشيخ/أحمد التيجاني[١].. مؤسس الطريقة التيجانية عندما أبلغه أنه بصدد إنشاء الطريقة التيجانية، فأرسل إليه ينهاه ويحذره من مغبة ذلك، وينصحه بالاقتداء بالسلف الصالح والبعد عن الطرقية. لكن ذلك لم يكن له تأثير في الشيخ التيجاني، ومضى في سبيله!!

ونحن نستطيع بعد هذا الذي أوردناه أن نقول: ان ثمة حقيقة مؤكدة هي أن كل هذه الجهود التي بذلت في الجزائر لعودة المسلمين إلى الإسلام الصحيح.. حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة والتي ألمعنا إلى بعضها كانت أشبه بجهود فردية، ولم تصل إلى مستوى (التيار العام) المؤثر؛ بل ان العكس هو الصحيح، فالتيار العام المؤثر والشائع كان تيار الطرقية الصوفية، والخرافات والبدع، والاستغاثة والتوسل والشفاعة لغير الله، والتعصب المغالى فيه لمذهب الإمام مالك، لدرجة أن المغرب كله يكاد يخلو من المذاهب الأخرى، ومن المجتهدين المتصلين اتصالا مباشرا بفقه القرآن والسنة.

ونتيجة للسيطرة الطاغية التي يتمتع بها الصوفية، وغيرهم من المبتدعة، كان أكثر المصلحين الذين ظهروا خلال القرون المنصرمة يميلون إلى لون من (الاصلاح) لا يذهب بهم إلى درجة الصراع المباشر الواضح مع الصوفية، فكان بعضهم يعمد إلى القول بأنه إنما يريد تنقية الطرق الصوفية وتقويمها، وقد ألف (أحمد زورق) - الذي تحدثنا عنه - كتبا من هذا القبيل (قواعد التصوف) و(أصول الطريقة) وكتاب البدع.. كما أن عبد الرحمن الأخضري نفسه - صاحب المقطوعات الطويلة في تصحيح العقيدة ومقاومة البدع يورد نظما نحس منه كأنه يستميل الصوفية فيقول: -

وقـال بعـض السادة الصوفيـة ... مقـالـة جليلـة صفيـة.
إذا رأيـت رجـلا يطـير ... أو فوق مـاء البحر قـد يسير.
ولم يقـف عنـد حـدود الشرع ... فـإنـه مستـدرج وبـدعي.

وفي إطار هذا المستوى من الفردية والاصلاح الجزئي المحدود، يجب أن نضع كل المحاولات التي سبقت تيار السلفية العام القوي الذي سيطر على الجزائر ممثلا في جيل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفيمن سبقه من رواد مهدوا له بعد أن تأثروا بالدعوة الاصلاحية التي قامت في جزيرة العرب.

---

(١) انظر المرجع السابق.

دخول حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الجزائر:

مع تلك التخوم التي تفصل بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة بدأت اشعاعات حركة الاصلاح في الجزيرة تنفذ إلى الجزائر عبر منافذ متعددة سوف نتعرض لها بالبحث.

وكان أول من حمل الدعوة إلى الجزائر المؤرخ الجزائري (أبو رواس الناصري)[1]. الذي قدر له أن يجتمع بتلامذة الإمام محمد بن عبد الوهاب في موسم الحج، ويذاكرهم في أمور انتهى بعدها إلى الاقتناع باتجاه حركة الشيخ ابن عبد الوهاب، وكان ذلك بحضور وفد الحجيج المغربي الذي كان يرأسه ولي عهد المغرب آنذاك.

وقد أشاد المؤرخ (أبو رواس) بآراء ابن عبد الوهاب عندما دون تفاصيل رحلته للحج بعد عودته إلى الجزائر.

والحق أنه بعد (أبي رواس) كان من الممكن أن تنفذ حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الجزائر في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة من طرق أقوى وأفسح مجالا.. إلا أن تطور الظروف على النحو الذي أدى إلى وقوع الجزائر تحت قبضة الاحتلال الفرنسي سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) حال دون ذلك.

نقول... إنه كان من الممكن حدوث ذلك التأثير لولا هذا الحدث الكئيب؛ بل أننا لنعتقد أن ذلك كان أمرا توجبه طبيعية الأمور، ولاسيا أن تلك الحركة التجديدية الكبرى التي أصبحت تنتسب إلى ليبيا، وهي الحركة السنوسية. كانت حركة جزائرية الأصل، فإن إمام هذه الحركة السيد/ محمد بن علي السنوسي الخطابي إنما هو جزائري ولد في بلدة مستغانم بالغرب الجزائري سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) - ولولا أن العثمانيين - من جانب - قد تربصوا به، وراقبوه على امتداد الحواضر المغربية كلها، ثم ظهر الفرنسيون منذ ١٢٤٦ هـ فتربصوا به وبكل حركة تجديد - من جانب آخر - لولا هذا لكان أمرا طبيعيا أن تكون الجزائر هي محضن الحركة السنوسية ولما اضطر السيد السنوسي إلى اللجوء إلى الصحراء وإلى واحة جغبوب من أرض ليبيا.

وأن التشابه في كثير من الأسس بين حركتي الشيخ محمد بن عبد الوهاب والسيد محمد السنوسي لا يحتاج إلى دليل. فالدعوتان - كما يقول الأستاذ العقاد: «تتشابهان في حماسة الدعوات وفي نبذ البدع والخرافات والرجوع بالإسلام إلى الكتاب والسنة، ولكنهما تختلفان بعد ذلك في أمور كثيرة[2]».

---

(١) الأصالة عدد (٥٣) الشيخ المهدي البوعبدلي.

(٢) الإسلام في القرن العشرين ص ٨١، طبع نهضة مصر.

أمّا تعرف السيد السنوسي على الدعوة الوهابية فقد تم له حين جاب بعض بلدان العالم الإسلامي كالمغرب ومصر وتونس، وحين ذهب لأداء فريضة الحج[1]. «حيث بقي مدة يأخذ من أساتذتها الوهابيين»[2].

ومع ذلك فنحن لم نعدم أن نجد في الجزائر - خلال القرن الثالث عشر - بالرغم من كل الظروف التي وقعت تحتها اشعاعات سلفية نفذت إما عن طريق الاتصال بمدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة مباشرة، وإما عن طريق تأثير الدعوة السنوسية الجزائرية الأصل والقريبة من الحدود، وإما عن طريق الجامعة الزيتونية التي تعلم فيها كثير من الجزائريين وقد ظهرت في قسنطينة بالشرق الجزائري - خلال هذا القرن حملة ضد البدع والخرافات، وكان مركزها (نادي صالح باي) الذي ألقى فيه بعد تأسيسه مباشرة الشيخ (ابن الموهوب) سلسلة محاضرات ضد الخرافات والبدع.

كما ظهر بقسنطينة - أيضا - العالم السلفي الشهير (صالح بن مهنا) الذي كان قد تخرج من الزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة... وبعد رجوعه انتصب للتدريس بمدينة قسنطينة وكتب رسالة يهاجم فيها شيوخ الطرق الذين يسميهم الناس (الأشراف) حينما بالغ في تعظيمهم بعض المنحرفين، وسمى رسالته: «تنبيه المغترين في الرد على إخوان الشياطين»... ومما جاء في رسالته عن هؤلاء الأشراف «أن من خالف السنة والشرع غير معتبر ولو كان مدعيا للصلاح أو الشرف أو العلم.

وأن الشريف الفاسق لا يعتبر حق ولو أنكر ذلك بعض الأرذال ممن قرأ مستلتين، ونعلم باب مسح الخفين»[3]!!

وقد أحدث صالح بن مهنا وكتابه ضجة كبيرة، وثارت عليه طائفة المتصوفة والدجالين، وألفوا في الرد عليه الرسائل والكتب وسبوه بقصائد كثيرة.

طريق الجزائر إلى الإسلام الصحيح:

وفي سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ م) استسلم الأمير عبد القادر الجزائري بعد مقاومة للاحتلال الفرنسي استمرت سبعة عشر عاما، ضرب فيها أروع أمثلة البطولة الإسلامية التي أعادت ذكرى بطولات المسلمين الأول من فاتحي إفريقية والمغرب، وتحمل فيها من المشاق ما نوه به المؤرخون الفرنسيون أنفسهم.

---

(١) أنظر المهدية مريم الجدلية: الإسلام بين النظرية والتطبيق ص ١٠٦ بمكتبة الفلاح بالكويت ومحمد السلمان: رشيد رضا ٦٦ (ماجستير) بكلية العلوم الاجتماعية.

(٢) ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ٢٥٩/١، وانظر كمال جمعة: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٢١٦.

(٣) البوعبدلي مرجع سابق ٣١.

وباستسلام الأمير عبد القادر فرضت فرنسا أبشع إجراءات الاضطهاد وأقسى أنواع الملاحقة للإسلام الصحيح واللغة العربية، وبذلت جهودا كبيرة في سبيل طمس معالم الحضارة الإسلامية في الجزائر، سواء بواسطة المبشرين النصارى أو بواسطة إجراءات (الفَرْنَسة) التي ترمي إلى إزالة كل ما هو إسلامي وعربي.

وفي الوقت نفسه سلطت فرنسا على الجزائر المسلمة قوافل (المتصوفة) ينشرون البدع والخرافات ويحاربون كل بادرة وعي إسلامي صحيح!!

وقد زاد الطين بلة أنه خلال السنوات الأخيرة من هذا القرن احتلت فرنسا تونس سنة (١٢٩٩ هـ) واحتلت إيطاليا ليبيا في العقد الثالث من القرن التالي!!.

ولقد بدا من خلال هذه الأسوار العالية المحكمة أن إسلامية الجزائر وعروبتها في محنة شديدة، وكان يخيل لبعض المؤرخين أن تاريخ الجزائر سيتجه إلى الفرنسية والتغريب أكثر من اتجاهه إلى الإسلام والتعريب. أما الفرنسيون فكانوا يعتبرون الجزائر (ولاية) فرنسية إلى الأبد.

* * * *

لكن الحقيقة أن هناك منافذ مضادة، إذا لم يكن المؤرخ العجل قادرا على ابصارها، فإن الباحث الحضاري كان باستطاعته أن يلمسها وأن يحس بآثارها الهادئة البطيئة والحاسمة في الوقت نفسه!!.

إنها منافذ تتصل بطبيعة الحضارة الإسلامية نفسها في الدرجة الأولى.

فإن فرنسا على كثرة ما اتخذت من إجراءات - لم تستطع أن تلغي - كل الإلغاء - أداء المسلم الجزائري لركن من أركان دينه هو الركن الخامس من أركان الإسلام «الحج»...

ولما كانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - بقوتها وريادتها ونقائها قد نشأت في البلد الذي تؤدى فيه شعيرة الحج، فقد أدى هذا الارتباط دورا كبيرا في نشر الدعوة على امتداد العالم الإسلامي كله.

فعن طريق «الحج»[1] انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الهند والبنجال بواسطة السيد أحمد شهيد بريلي وزميله الشهيد إسماعيل، والحاج شريعة الله البنجالي، ونزار علي.

---

(١) انظر محمد كمال جمعة: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة ٧٣، ٨٠، ٨٤، ٩٠، ٩٤، ٩٩، ١٠٦ وغيرها.

وعن طريق الحج انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جاوة وأندونيسيا بواسطة الزعيم (توانكونان رنتجه) و (الحاج مسكين) و (البدري).

وعن طريق الحج انتشرت الدعوة في إفريقيا على يد الشيخ عثمان بن فودى.

وقد أوجز أحد الكتاب المعاصرين التأثير العام للحج في نشر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية، فقال: -

« انتشرت دعوة الشيخ في خارج نجد من أجل استيلاء الدولة السعودية على مكة المكرمة سنة ١٢١٨ هـ، وأصبح حجاج البلاد الإسلامية يفدون إلى مكة المكرمة ويشاهدون علماء هذه الدعوة الحقة، ويستمعون خطبهم ومواعظهم وإرشاداتهم السديدة وتوجيهاتهم القيمة... فتأثر بعض الحجاج بدعوة الشيخ فأخذ ينشر في بلاده التوحيد ويحارب الخرافات الشائعة في بلاده، فانتقلت - بهذا - مبادئ الدعوة إلى السودان والهند وسومطرة والعراق والشام ومصر والجزائر وجاوة وعمان وفارس»[١].

وهكذا فان طريق الحج كان واحدا من أهم الطرق التي عبرت من خلالها دعوة الشيخ إلى الجزائر، متخطية تلك الأسوار القوية التي أقامها الاستعمار الفرنسي!!!.

والطريق الثاني الذي اخترقت به الدعوة هذه الأسوار هو (طريق معنوي) لم يستطع الاستعمار الفرنسي أن يفهمه لأنه لا يستطيع بتركيبه المادي الغربي أن يفهم بناء الإسلام ولا طبيعته الروحية.

إننا نستطيع أن نطلق على هذا (الطريق المعنوي) مصطلحات متعددة، وكلها صالحة للتعبير عن حقيقته... (إنه الشعور الإسلامي الواحد) أو هو (الأخوة الإسلامية) أو هو (الروح الإسلامية)... فالمسلمون على العكس من كل أتباع الأديان الأخرى تنتظمهم مشاعر واحدة، حتى لو فرقت بينهم أهواء الساسة، وأن المسلم ليتألم ويفرح لكل ما يصيب أخاه المسلم، مهما كان بعيدا عنه... وهم يتبادلون التأثير والتأثر كما تنتشر الموجات الكهربائية.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة - بطريقة غير مباشرة - (السير توماس أرنولد) فيما يتعلق بتأثير حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العالم الإسلامي كله فاعتبرها أول (عاملين) يؤثران في انتعاش الحياة الإسلامية في العصر الحديث « فان تأثيرها الديني ملموس في كافة أنحاء إفريقية والهند والملايو إلى الوقت الحاضر، وإن ما أثارته هذه الحركة من حماسة متقدة، وما سكبته في النظم الدينية القائمة من حياة جديدة، وما بنته في الدراسة الدينية النظرية وتنظيم الشعائر المنسكبة من روح دافعة... إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح

---

(١) أحمد بن حجر أبو طامي والشيخ محمد بن عبد الوهاب ٧٩.

الإسلام الفطرية[1].

أما ثاني العاملين اللذين ذكرهما (أرنولد) في مجال انبعاث النهضة الإسلامية الحديثة، فهو (عامل) يقول عنه إنه من نوع يختلف عن هذه الحركة جد الاختلاف، وهو (عامل حركة الوحدة الإسلامية التي تسعى إلى ربط جميع شعوب العالم الإسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف)[2].

وبالطبع فان (أرنولد) - كسائر الأوربيين - لم يستطع أن يدرك أنه لا خلاف بين العاملين؛ بل أن العاملين يكمل أحدهما الآخر، فالشعور الإسلامي الواحد هو أقوى جسر تظهر عليه كل موجات الاصلاح الإسلامي الحقيقي، وعليه عبرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية إلى بلدان العالم الإسلامي واخترقت أسوار الاستعمار النصراني!!.

أما الطريق الثالث فهو طريق يتصل بالطريق السابق، وإن كان أكثر مباشرة ووضوحا.

فبينما كانت الجزائر محاطة بسور الاستعمار الفرنسي ارتفعت في العالم الإسلامي دعوة أطلق عليها بعضهم اسم (الوهابية الجديدة)، كما أطلق عليها - أيضا - دعوة «الجامعة الإسلامية».. مما يدل على الترابط بين الدعوتين وكان قائد هذه الدعوة هو السيد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ) أحد المتأثرين بالشيخ محمد بن عبد الوهاب عن طريق أدائه فريضة الحج سنة ١٢١٣ هـ وعن طريق مجيئه إلى الهند وسماعه عن أثر الوهابيين، ولذلك اتهم من قبل اعدائه بأنه وهابي؛ بل روى أنه هم بالسفر إلى نجد لقيادة الحركة الوهابية[3] عن كثب. ويقول (جب): إن جهود جمال الدين كانت لها نتائج متينة راسخة.. إذ نشرت في أرجاء البلاد الإسلامية المبدأ الوهابي القائل بضرورة التعلق بالصفاء المذهبي وإعادة تأكيد المذهب السني القرآني[4].

وكان لجمال الدين الأفغاني تلميذان، وضحت فيهما دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أكثر منه وكانا واسطتها إلى الجزائر خاصة - على نحو لم يستطعه هو أو لم يسع إليه وهما: الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ) والشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ) - وقد استطاعت هذه المدرسة (الأفغانية) أو مدرسة (العروة الوثقى) كما أطلق عليها بعضهم... أن تحمل دعوة الإصلاح السلفي إلى الجزائر والعالم الإسلامي في وقت خلت فيه الساحة من المصلحين الأقوياء.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ٤٦٨ ص ٣١ طبع نهضة مصر.
(٢) المكان السابق.
(٣) العقاد: الإسلام في القرن العشرين ٨٩.
(٤) نقلا عن: محمد السلمان: رشيد رضا (مخطوط) ١٤٣.

وقد كانت مجلة العروة الوثقى... ثم مجلة المنار - من أكبر المجلات المدافعة عن اتجاه العودة إلى الإسلام الصحيح. وقد أتيح لهاتين المجلتين من الانتشار ما لم يتح لغيرهما وكان الزود عن حياض دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب واضحا فيهما، ولاسيما في المنار[١] التي استطاعت أن تدخل إلى الجزائر وإلى بقية بلدان الشمال الأفريقي، منذ سنتها الأولى حتى أنه في سنتها الخامسة ذكر أحد القراء في تونس أن العدد الواحد من مجلة المنار يدار على عشرات الناس في البيوت[٢].

ولعل أكبر دليل على حسن انتشار المنار في بلاد شمال إفريقية أن الشيخ محمد عبده حينما قام بزيارة إلى تونس والجزائر عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) شاهد هناك الأثر الكبير الذي أحدثته مدرسة المنار ممثلة في مجلتها، وتأثير ذلك في نشر الأفكار الإصلاحية[٣].

وهكذا؛ فعن طريق هذه المعابر الحضارية الإسلامية، تحطمت أسوار الاستعمار الفرنسي الرهيبة، وظهرت حركة (إسلامية صحيحة) شقت طريقها وسط كل الظلمات والعقبات حتى أصبحت التيار العام المسيطر والمؤثر.

بوادر النهضة الاصلاحية الحديثة بالجزائر:

لم تنشأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بهذه المبادئ الوضاحة والقوية في عام واحد. وهو العام الذي احتفل فيه الاستعمار الفرنسي بمرور قرن على احتلاله للجزائر سنة (١٩٣٠ م) احتفالا أساء إلى الشعور الإسلامي، كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين!!

فالحق أن اساءات الفرنسيين للشعور الإسلامي كانت تتكرر في كل يوم من أيام احتلالهم للجزائر، كما أنه ليس من طبيعة الأشياء أن بلدا يعيش في ظروف الجزائر تظهر فيه الدعوات المنظمة الواضحة المبادئ والأهداف - طفرة وبدون اعداد جيد لخمائر الوثبة المنشودة.

ومن هنا يبدو صدق ما ذهبنا إليه من أهمية تأثير المعابر القوية الثلاثة الصادقة، كما يدل على ذلك - أيضا - بوادر النهضة الاصلاحية التي ظهرت بشكل فردي - خلال هذه الفترة الصعبة - قبل بروز جمعية العلماء الجزائريين.

كان الشيخ (عبد القادر المجاوي) (١٨٤٨ - ١٩١٣ م) - ١٢٦٥ - ١٣٣٢ هـ في طليعة هؤلاء الذين ظهروا خلال هذه الفترة متفاعلين مع قضية الاصلاح الإسلامي - كأساس

---

(١) أنظر السلمان: رشيد رضا (١٩٠) وما بعدها.
(٢) المرجع السابق ٣٦٧.
(٣) السابق ٣٦٨.

لتحرير الجزائر من الاستعمار - ويطلق صديقنا الدكتور (تركي رابح)[1] على (المجاوي) عبارة (دائرة معارف) لكثرة تحصيله وغزارة علمه وتنوع معارفه ومشاركته في كل فن بطرف[2].

وقد عاش المجاوي للعلم والتعليم، فتخرج عليه عدد هام من العلماء الجزائريين كان من بينهم الشيخ (حمدان الونيس) الأستاذ الأول للشيخ عبد الحميد بن باديس، ورئيس جمعية العلماء.

وقد ترك «البجاوي» عدة مؤلفات سلفية منها شرح «منظومة اللمع في انكار البدع» نظمها تلميذه السلفي المولود بن الموهوب، وحمل فيها حملة شعواء على البدع والطرقية. ومن هؤلاء الشيخ أبو القاسم الحفناوي الشاعر المؤرخ، وكان كاتبا بليغا وباحثا مدققا، مشتغلا بالتعليم والتأليف إلى أن مات.

ومنهم الشيخ مصطفى بن الخوجه (١٨٦٥ - ١٩١٥ م) ١٢٨٢ - ١٣٣٤ هـ وهو من خيرة أتباع الشيخ محمد عبده، وعلى رأس مدرسته في الجزائر، وقد ألف كتاباً عن حقوق المرأة في الإسلام أسماه «الاكتراث في حقوق الإناث»[3].

ومن أبرز هؤلاء «عمر بن قدور الجزائري» الذي لقب برائد الدعوة إلى التضامن الإسلامي - على الرغم من أسوار الاستعمار الفرنسي - وتوفي سنة (١٩١٥ م) (١٣٣٤ هـ) بعد حياة طويلة حافلة بالجهاد والشجاعة. وكانت له مقالات كثيرة نشرها في داخل البلاد وخارجها. ونشر بعضها في الآستانة في جريدة الحضارة، وبعضها في اللواء والمؤيد بالقاهرة وقد دعا إلى مشروع أطلق عليه اسم «جماعة التعارف الإسلامي» ليكون نواة لتحقيق تضامن الأمة الإسلامية. وكانت لعمر بن قدور نظرات سديدة تدور في فلك المدرسة الاصلاحية، فقد كان يرى أن الجهل - أولا - وتسلط الأجنبي - ثانيا - هما سبب ما أصاب الأمة الإسلامية من ويلات، وعنهما نشأ فريقان ابتليت بهما الأمة: فريق جامد متحجر وهم العلماء الجامدون الذين قيدوا الفكر الإسلامي عن الاجتهاد والانطلاق، وغلبوا المسلمين في سلاسل الخرافات والبدع، وألقوا بهم عند أعتاب الأولياء جثثا لا حراك بها يقعدهم عن العمل التوكل والزعم بالتسليم بالقضاء والقدر، أما الفريق الثاني: فهو

---

(١) أخطأ الأستاذ محمد كمال جمعة صاحب انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فأطلق عليه اسم (تركي براع) ص ٢٤٤ والصحيح ما ذكرناه. وهو أستاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر.

(٢) عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ص ١٠٦ نشر الشركة الوطنية بالجزائر.

(٣) المرجع السابق ١٠٧ - ١٠٨.

فريق الشباب المتفرنج المؤمن بالحضارة الأوربية[1].

ومن هؤلاء المصلحين الذين مهدوا لظهور تيار جمعية العلماء - الأستاذ محمد بن أبي شنب ١٢٨٦ - ١٣٤٨ هـ (١٨٦٩ - ١٩٢٩ م)، وهو من أهم الشخصيات المثقفة، المؤمنة بإسلامها الساعية إلى التمسك به، وبالحفاظ على اللغة العربية... وقد ظل يعمل في اطار بعث الثقافة الإسلامية الصحيحة ونشر اللغة العربية قرابة نصف قرن.

ومن أبرز زعماء هذه المرحلة الشيخ عبد الحليم بن سماية ١٢٨٣ - ١٣٥٣ هـ (١٨٦٦ - ١٩٣٣م) ويقول عنه الدكتور (رابح) انه من العلماء القلائل الذين نشروا الفكرة السلفية في الجزائر، وكان يدرس (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده.

وقد ذكره الشيخ رشيد رضا في كتابه «تاريخ الإمام محمد عبده» على أنه ممن اجتمع بهم الإمام محمد عبده عند زيارته للجزائر سنة ١٩٠٣م[2]. كما يتحدث عنه المؤرخ الجزائري المعاصر (عبد الرحمن الجيلالي) فيقول: انه كان من أول من أسرع إلى استقبال الشيخ محمد عبده، وملازمته ليلا ونهارا، ومدحه بقصيدة نشر بعضها في مجلة المنار في عددها الصادر يوم ٦ ذي القعدة ١٣٢١ هـ وقدم لها صاحب المنار بقوله: «إنها قصيدة عالم جزائري، بل أشهر علماء الجزائر مدح بها الأستاذ الإمام وأرسلها إليه في القاهرة.... فسرنا منها أنها آية من آيات صلة علماء الإسلام بعضهم ببعض في الأقطار المتباعدة»[3].

كذلك ينبغي أن نشير إلى المرحوم (عمر راسم) ونشاطه الإصلاحي فقد كان هو الآخر متأثراً بالشيخ محمد عبده والمدرسة السلفية[4].

ولا شك أن هناك كثيرين غير هؤلاء، قاموا بدور كبير، خلال هذه الفترة، حتى إذا ما جاءت سنة ١٩٣٠م - التي مثلت حدثاً غير عادي بالنسبة لشعب مسلم مقهور - محروم من التعبير عن ذاته المسلمة ولسانه العربي منذ قرن كامل... حتى إذا ما جاءت هذه السنة، ووقف الحاكم الفرنسي «ينعي إلى الحضارة إسلام الجزائر إلى الأبد» دون إكتراث بمشاعر الجزائريين... قام المصلحون السلفيون يتحدونه، ويقول إمامهم ابن باديس:

شعـــب الجزائر مسلم ... وإلى العروبـــة ينتسب
من قـــال حـــاد عن اصلـــه ... أو قـــال مـــات فقـــد كـــذب

---

(١) د. محمد ناصر. عمر بن قدور: رائد الدعوة للتضامن الإسلامي: الأصالة ٥٨.
(٢) د. تركي رابح: مرجع سابق ١٠٨.
(٣) أنظر: الجيلالي: جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم سماية - عدد ١٣ من الأصالة الجزائرية.
(٤) تركي رابح: الأصالة عدد ٢٤ ربيع الأول ١٣٩٥ هـ.

وظهرت في ساحة الجهاد – جمعية العلماء الجزائريين، تحارب الخرافات والبدع وتجمع الجزائريين على الإسلام الصحيح... لأنه – وحده – الطريق الصحيح.

مؤسس جمعية العلماء والسلفية:

لكن السؤال الذي يفرض نفسه – عند هذه النقطة – على الرغم من كل التأثيرات العامة والأساسية التي ذكرناها – هو: كيف وصلت السلفية الإصلاحية التي قامت حركتها الأخيرة على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب – إلى مؤسسي جمعية العلماء الجزائريين. هؤلاء الذين قادوا الجمعية ووجهوها إلى ما آمنوا به. والحقيقة أن كثيراً من تلامذة جمعية العلماء الجزائريين يسجلون انتماء الشيخ ابن باديس إلى مدرسة الإمام محمد بن عبد الوهاب بشيء من التلقائية، وكأنه أمر مقرر لا جدال فيه[1] والأمر نفسه بالنسبة للمؤرخين[2].

لكننا مع ذلك نؤثر تتبع وصول السلفية إلى الجمعية وروادها عبر جداولها الخاصة إلى جانب الروافد العامة التي تحدثنا عنها.

والمعروف أن الشيخ عبد الحميد بن باديس قد تأثر أول ما تأثر بالفكرة السلفية عن طريق أساتذته في جامعة الزيتونة بتونس وذلك بعد سفره إلى تونس سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) – لإتمام دراسته في جامع الزيتونة.

وأبرز من أخذ عنهم الفكرة السلفية من أساتذة الزيتونة بتونس اثنان هما: الشيخ محمد النخلي القيرواني المتوفي سنة ١٩٢٤ م، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور. وقد أشار ابن باديس نفسه إلى تأثير هذين الشخصين عليه في مقال كتبه في جريدة البصائر عام ١٩٣٦ م فقال:

«عرفت الأستاذ الطاهر بن عاشور في جامع الزيتونة. وهو ثاني الرجلين الذين يشار إليهما بالروح في العلم. والتحقيق في النظر. والسمو والاتساع في التفكير أولهما العلامة الأستاذ محمد النخلي القيرواني – رحمه الله – وثانيهما: الأستاذ شيخنا الطاهر بن عاشور.

وكانا كما يشار إليهما بالصفات التي ذكرناها يشار إليهما بالضلال والبدعة، وما هو أكثر من ذلك لأنهما كان يحبذان آراء الأستاذ محمد عبده في الإصلاح. ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقرأ عليهما، وكان هذا مما استطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما. وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة، واتصلت بهما حتى حصلت على الشهادة «العالمية» ووجدت لنفسي الاختيار فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر. على أن

---

(١) انظر كتابات د. عمار طالبي (ابن باديس حياته وآثاره) وكتاب الدكتور. تركي رابح عن عبد الحميد بن باديس. وغيرهما

(٢) راجع بقولنا السابقة من ستودارد و رنولد

الأستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيداً لاتصالي الوثيق بالأستاذ النخلي »[1].

أما الرافد السلفي الثاني الذي أثر في مؤسس جمعية العلماء فيتمثل في تلك السفرة الطويلة إلى المشرق العربي، والتي أدى فيها « فريضة الحج » واجتمع خلالها بعدد كبير من رجالات الفكر والإصلاح في العالم العربي من بينهم الشيخ حمدان الونيس، شيخه السابق، والشيخ حسين الهندي العالم السلفي المجاور الذي نصحه بوجوب العودة إلى الجزائر لاحتياجها الشديد إلى علمه وفكره، والشيخ (البشير الأبراهيمي) الذي تعرف عليه ابن باديس لأول مرة في حياته في المدينة المنورة حيث كان قد هاجر إليها في حدود عام ١٩١٠ م (١٣٢٨ هـ) ومنذ ذلك الحين ارتبط بصداقة متينة كانت خيرا وبركة على الجزائر والحركة الإصلاحية السلفية التي برزت فيما بعد في حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[2]. أي أنه هنا في قاعدة السلفية الأولى في العصر الحديث - في المدينة المنورة - تم عقد النية والاتفاق على إقامة الحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر بين مؤسسيها البشير الأبراهيمي، وابن باديس.

مبادىء السلفية وركائز جمعية العلماء:

لعله من الحقائق المقررة أن التشابه - بل الاتفاق - في الأسس والمبادىء بين حركتين من حركات البعث والإحياء - إنما يقوم دليلا قوياً على تأثر اللاحقة بالسابقة.

وقد ذكرنا في صدر بحثنا خلاصة ركائز دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لهذا الغرض.

وفي هذا المقام نورد أهم الركائز التي قامت عليها الحركة الإصلاحية الجزائرية التي عرفت باسم جمعية العلماء، والتي كان لها الفضل في تحرير الجزائر من الفرنسيين وعودتها إلى الإسلام واللغة العربية.

ومن دراستنا لجمعية العلماء فكراً وعملا - كما تدل على ذلك مصادرها - نستطيع أن نلخص الركائز التي قامت عليها في النقاط التالية: -

أولا: إصلاح عقيدة الجزائريين. فقد كانت جمعية العلماء تركز عملها بصفة عامة على مقاومة الخرافات والبدع التي شوهت عقيدة المسلمين[3]، وتطهير عقيدتهم من مظاهر الشرك؛ سواء العلني منها أو الخفي.

---

(١) البصائر عدد (١٦) السنة الأولى.

(٢) د. تركي رابح: الأصالة ٢٤.

(٣) أنظر كتاب الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ٢٧٢/٢٧٣ د. رابح تركي.

وقد كان لإمام جمعية العلماء الشيخ ابن باديس دروس يمليها على تلامذته في (جامع قسنطينة) تحت عنوان (العقائد الإسلامية) وكان يتبع في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وصفاته منهج القرآن الكريم في الاستدلال لا منهج علماء الكلام المتأثرين بالأساليب الفلسفية والإغريقية العقلية. أو أساليب الفقهاء الذين يستدلون بكلام أئمتهم أو قدماء أتباعهم بدل الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1]

وقد نشرت أجزاء هامة من تلك الدروس بعد وفاة ابن باديس تحت عنوان «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية» وهي نعطينا صورة واضحة عن طريقة جمعية العلماء في إصلاح العقيدة على النهج السلفي. وابن باديس يصف طريقته تلك بأنها «الطريقة المثلى في الاستدلال على وجود الله وصفاته فما يرجع إلى الغيبيات لا يكون إلا بالقرآن لأن المؤمن إذا استند في توحيد الله وإثبات ما يثبت له ونفي ما انتفى عنه لا يكون إلا بآية قرآنية محكمة»[2].

ويعلق أحد الكتاب الجزائريين على منهج ابن باديس في اصلاح عقيدة الجزائريين فيكشف النقاب عن حقيقة تأثره فيها بطريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب... يقول:

«هناك ملاحظة ينبغي الإشارة إليها قبل المضي في بيان ملامح فلسفة ابن باديس، وهي أن الإمام عبد الحميد بن باديس عالم مسلم يعمل في الدائرة الإسلامية... وهو كذلك مصلح سائر على نهج المصلحين السلفيين من أتباع المدرسة الإصلاحية السلفية التي ظهرت في الشرق الإسلامي في القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) وكانت تنادي بضرورة العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى، وهو الكتاب والسنة بعيداً عن بدع المبتدعين، وخرافات المنحرفين»[3]

وفي رأي ابن باديس - وهو رأي الإمام ابن عبد الوهاب - أن العقائد السليمة هي قاعدة الإصلاح في المجتمع. وهو ينادي بأن حالة التدهور العام التي وصل إليها المسلمون في القرون الأخيرة إنما تعود إلى تدهور العقيدة لدى الفرد المسلم وتطرق الشرك الخفي إليها، وهو يعتبر ذلك «قاعدة الإصلاح» ويقول: «فلنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات»[4]

---

(١) السابق ص ١٩٩ - ٢٠٠.
(٢) انظر مقدمة العقائد الإسلامية للشيخ بن باديس جمع ونشر محمد صالح رمضان
(٣) تركي رابح - المرجع السابق ص
(٤) انظر المرجع السابق ص ١٢٣ (نقلا عنه)

ثانياً: مقاومة الصوفية المبتدعة:

ترتبط مقاومة الصوفية والمبتدعة بإصلاح العقيدة إرتباطاً وثيقاً - هكذا كان المنهج بالنسبة لحركة الإمام ابن عبد الوهاب أو بالنسبة لحركة جمعية العلماء الجزائريين.

فما نكب الأمة في عقيدتها التي هي مبعث تميزها وفخرها على الملل الأخرى إلا هؤلاء المتصوفة وإخوانهم من سائر المبتدعة.

وكما كان لهؤلاء الصوفية والمبتدعة موقف مشين من دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب كان لهم - كذلك - الموقف نفسه من جمعية العلماء الجزائريين... بل أنهم ارتكبوا في الجزائر خيانة عظمى أخرى - بعد خيانتهم لله - هي أنهم والوا فرنسا ووقفوا معها ضد المسلمين الجزائريين دعاة الإصلاح والتحرير. فلا بدع أن تأخذ مقاومة هؤلاء قدراً كبيراً من جهود العلماء، وأن تصبح المعركة معهم سافرة واضحة وضوح المعركة مع المستعمر الفرنسي - ويرى الشيخ (محمد البشير الأبراهيمي) الرائد الثاني لجمعية العلماء ورئيسها بعد ابن باديس - أن مقاومة البدعية والصوفية ورجال الدين الرسميين المنافقين هو «أول يد بيضاء أسدتها الجمعية للجزائر حين قامت بتحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدنيا، وتحرير النفوس من تألية الأهواء والرجال، فإن تحرير النفوس والعقول هو الأساس لتحرير الأبدان وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلاً عبداً.. وبذلك التحرير العقلي الذي أساسه - توحيد الله - تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة والمشارب المتنابذة والنزعات المتضاربة، وبذلك التحرير أيقظت في الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادىء، وبين الصالح والزائف منها، وبذلك التحرير أراحت الأمة من أصنام كانت تتعبدها باسم الدين أو باسم السياسة[1]».

ويكشف الابراهيمي «حقيقة بعض المنافقين والمبتدعة الذين تستخدمهم فرنسا لأغراضها، بأسلوب يذكرنا بأسلوب الإمام محمد بن عبد الوهاب... فيقول: «في أيام الحملة الكبرى على الحكومة (الفرنسية) ظهر (هؤلاء) بمظهر مناقض للدين، فكشفوا الستر عن حقيقتهم المستورة، ووقفوا في صف الحكومة مؤيدين لها، خاذلين لدينهم وللمدافعين عن حريته. مطالبين بتأييد استعباده، عاملين بكل جهدهم على بقائه بيد حكومة مسيحية تخربه بأيديهم، وتشوه حقائقه بألسنتهم، وتلوث محاربيه ومنابره بضلالتهم(...).

وقد أخذوا في الزمن الأخير ببعض مظاهر العصر، وتسلحوا ببعض أسلحتهم بإملاء من الحكومة للدفاع عن الباطل، فكونوا جمعية، وأنشأوا مجلة، وجهزوا كتيبة من الكتاب يقودها أعمى - خذلاناً من الله ليشترك عاقلهم وسفيههم في هذه المخزيات، وبحكم العمومية

---

(١) البشير الأبراهيمي: عيون البصائر جـ ١ ص ٢٦، ص ٢٧ نشر بدار المعارف بالقاهرة.

في الجمعية، والإشتراك في المجلة، بعد ما كانوا يعملون فرادى، فيمتاز البريء منهم عن المجرم، ولو في دائرته الضيقة ومن أهله وجيرانه.... دافعناهم - عندما ظهروا بذلك المظهر - بالحق فركبوا رؤوسهم، فتسامحنا قليلا ابقاء على حرمة «المحراب والمنبر» التي انتهكوها، فشددوا إبقاء على حرمة الخبزة، فكشفنا عن بعض الحقائق المستورة فلجوا وخاضوا، وثاروا وخاروا، فلما عتوا عن أمر ربهم رميناهم بالآبدة.... وهي أن الصلاة خلفهم باطلة؛ لأن إمامتهم باطلة... لأنهم جواسيس»[(١)].

ولم يكن الإمام عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - أقل حرباً للصوفية والمبتدعة من الشيخ الأبراهيمي؛ بل كان - رحمه الله - يتهمهم بإفساد الإسلام، وأنهم قد أخذوا أنفسهم بنسك الأعاجم، واخترعوا أعمالا وأوضاعاً من عند أنفسهم، وظنوا أنهم يتقربون إلى الله زلفى على غرار المشركين قبل البعثة النبوية[(٢)].

يقول ابن باديس: «وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان محمد ﷺ يسعاه وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور» كما يتهم رجال الطرق الصوفية بأنهم ادعوا لأنفسهم نوعاً من الربوبية حينما زعموا للعامة الساذجة بأنهم قادرون على المنح والعطاء، كما أنهم قادرون على المنع والحرمان وذلك بقصد استغلالهم وابتزاز أموالهم وصرفهم عن مكافحة الاستعمار الذي يحتل وطنهم إلى التمسح بأعتاب رجال الطرق الصوفية[(٣)] الذين ابتليت بهم الجزائر في هذه الحقبة من أحقابها الطويلة.

ثالثاً: الرجوع إلى القرآن والسنة:

يقول ابن باديس: إن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كانت إلا للقرآن وبالقرآن، وأن أئمة الهدى أنفسهم كانوا يدعون لاتباع الكتاب والسنة فهم دعاة أتباع لا ابتداع، وما دعوا إلى (التحزّب) لأنفسهم... كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام دعانا إلى اتباع سبيله في القيام بالشرائع في حياتنا العامة والخاصة، وتلك هي سنته التي كان عليها أهل القرن الأول والثاني والثالث، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم عليه الصلاة والسلام[(٤)].

---

(١) عيون البصائر ١٩٨/١.

(٢) د. تركي رابح: مرجع سابق ٢١٣.

(٣) المكان السابق، وانظر ص ١٨٥ وينظر تفسير الشيخ ابن باديس لآيات ﴿ومن أراد الآخرة...﴾ وآية ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره...﴾ وآية ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات...﴾ وغيرها.

(٤) أنظر تفسيره لآية ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾.

رابعاً: تحذير الناس من الأحاديث الموضوعة:

دأب مفكرو جمعية العلماء على تفنيد تلك الأحاديث، والآثار الشائعة المنكرة والموضوعة التي شوهت جمال الإسلام.

فإن الإمام ابن باديس - رحمه الله - يكاد لا يذكر عبارة السنة إلا ويحددها بعبارة «الصحيحة الثابتة» وذلك تحذيراً من كل ما روي عن النبي ﷺ من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ويقول في شرحه للآية (أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً):

لا بد أن نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي ﷺ من الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم فإذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل: قيام الليل ثم وجدنا حديثاً في فضل قيام الليل يذكر ثواباً عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديداً على وجه الترغيب. ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه وهذا هو معنى قولهم الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال أي: في ذكر فضائلها المرغبة فيها فقط لا في أصل ثبوتها.

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين[1].

خامساً: محاربة الجمود الفكري الذي نتج عن اقفال باب الإجتهاد وإحياء التفكير الإسلامي.

يقول ابن باديس: - رحمه الله - ذاكراً فضل اثنين من أساتذته ومربيه له: (وأني لأذكر للأول: حمدان الونيس) وصية أوصاني بها وعهداً عهد به إليّ. وأذكر أثر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنةٍ لا يقوم بها الشكر فقد أوصاني وشدد على أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت، وأذكر للثاني (محمد النخلي) كلمة لا يقل أثرها في حياتي العلمية عن أثر تلك الوصية في حياتي العملية، وذلك أني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي: (اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح) فوالله لقد فتح الله بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها»[2].

---

(١) الأستاذ محمد خليل: نبذة عن حياة الإمام ابن باديس: الدعوة السعودية عدد ٦٨٣

(٢) المكان السابق.

سادساً: رفض التوسل والاستغاثة، والاعتماد على النفس في التقرب إلى الله... فقد كان الشيخ يؤكد في كل دروسه وكتاباته «أنه لا يجوز الاعتماد على غير ما يقوم به الإنسان من عمل صالح، ينتفع به في دنياه، ويتقرب به إلى الله في أخراه... أما ما يتوسل به الجهلة بحقائق الإسلام، أو يضلهم به بعض المشعوذين فلا عبرة به في نظر الإسلام الصحيح»[1].

تلك هي أهم الركائز التي قامت عليها جمعية العلماء وقد تكون هناك مبادىء أخرى.. لكنها يمكن أن تندرج تحت هذه الركائز، كما أن طريقة عرض الأسس التي قامت عليها دعوة جمعية العلماء الجزائريين، قد تختلف من مفكر لآخر، وكذلك الأمر بالنسبة لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب... لكن المضمون في نهاية الأمر متفق - تمام الاتفاق - في الحركتين.

وعلى سبيل المثال: فإن أحد المفكرين الجزائريين يذهب إلى أن دعوة الشيخ ابن باديس، التي هي دعوة الجمعية ركزت على ثلاثة أسس:

١ - اصلاح عقلية الجزائريين.
٢ - اصلاح عقيدة الجزائريين.
٣ - اصلاح أخلاق الجزائريين[2].

لكننا عند التحليل العلمي للمضمون، بل عند قراءتنا لتفاصيل هذه الاصلاحات نجدها لا تخرج عما ذكرناه... وليس الخلاف إلا في أسلوب العرض.

كما أن من الجلي أن هذه الركائز هي - تماماً - الركائز نفسها التي قامت عليها حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب؛ بل إنني لأرى أن التزام جمعية العلماء بهذه الركائز كان إلتزاما يقترب من التزام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويفضل التزام مدرسة العروة الوثقى، وربما يفضل مدرسة المنار ورشيد رضا أيضاً، وليس هنا مجال تفصيل ذلك.

تشابه في الموضوع والمنهج والأسلوب:

وهناك جانب آخر - إلى جانب الاتفاق في الركائز - يدلنا أيضاً على مدى توافق الحركتين، وهو جانب الاتفاق في الكتابة موضوعاً ومنهجاً وأسلوباً.

ولأن هذا المقام قد لا يتسع لنقل نصوص وفقرات كاملة من كتابات الشيخ ابن عبد الوهاب وكتابات زعماء جمعية العلماء الجزائريين كالشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الأبراهيمي - فنحن - إلى جانب الركائز التي ذكرناها والتي توضح الاتفاق التام

---

(١) الأستاذ علي مرحوم: لمحات من حياة الشيخ ابن باديس: الأصالة ٢٤ والجدير بالذكر أن الأستاذ علي مرحوم من تلامذة ابن باديس وأعضاء جمعية العلماء.

(٢) ابن باديس ونشأة الحركة الاصلاحية في الجزائر. د. تركي رابح مجلة الأصالة عدد ٢٤.

بين الدعوتين - نشير إلى أنه من دواعي التأكيد على تأثر جمعية العلماء الجزائريين بدعوة الشيخ ابن عبد الوهاب أن كثيراً من كتابات الشيخ ابن باديس والشيخ الأبراهيمي تبدو للقارىء وكأنها ترجمة أمينة لبعض كتابات الشيخ ابن عبد الوهاب وتلامذته وعلى رأسهم مدرسة العروة الوثقى والمنار.

أما اتفاق الكتابات في الخصائص والسمات؛ فهي حقيقة لا شك فيها: فإن القوة والجرأة والروح الإيمانية الواثقة غير الهيابة التي تبدو في كتابات الإمام محمد بن عبد الوهاب؛ ولاسيا في رسائله وخطبه لجدها - كذلك - في كتابات مدرسة جمعية العلماء الجزائريين.

وإن الاعتماد على الدليل القوي المباشر الواضح المستقى من كتاب الله وسنة نبيه وسلوك الأئمة - نجده خاصة تنتظم كتابات الإمام ابن عبد الوهاب وجمعية العلماء الجزائريين، ممثلة في رائديها: «عبد الحميد بن باديس» و... «البشير الأبراهيمي»؛ بل أن الموضوعات تبدو وكأنها تدور في فلك واحد وتعالج أوضاعاً واحدة مع أن الظروف الزمانية كانت مختلفة.

وقد يرد على الخاطر أن «الأعداء» كانوا مختلفين - أيضاً - ولاسيا أنَّ الاستعمار الفرنسي كان مسيطراً على الجزائر، والمتوقع أن تحتل مقاومته درجة الاهتمام الأولى.. لكن الحقيقة أن مدرسة جمعية العلماء لم تقع - إلى حد كبير - في هذا الخطأ الحضاري؛ بل أنها أدركت أن الاستعمار إنما هو نتيجة وليس العلة أو السبب، وإنما السبب هو ما أصاب كيان المسلم في عقيدته وفكره والمنهج الصحيح هو علاج «العلة» أولاً.. ومن هنا صرفت أكثر جهودها في مقاومة «البدع والخرافات» وفي إحياء دين الأمة ولغتها، دون أن تغفل عن مقاومة الإستعمار كذلك.

ويضاف إلى هذه الخصائص - سمة أخرى واضحة في كتابات الإمام محمد بن عبد الوهاب، ومدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين... هذه السمة نستطيع أن نطلق عليها: عدم المداراة أو التكلف؛ بل المواجهة الصريحة بالألفاظ القوية التي لا تحتمل تأويلاً ولا لبساً... حتى وأن أغضب ذلك بعض الناس؛ الذين يريدون المداراة والتحايل منهجا للعمل الإسلامي.

ونورد فيا يلي بعض نصوص من كتابة الشيخ ابن عبد الوهاب، وكتابة مدرسة جمعية العلماء الجزائريين، لنستدلَّ بمقارنتها على صدق ما استنتجناه من اتفاق بين الحركتين في المنهج والموضوع والأسلوب.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب: «ولست ولله الحمد أذهب إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم؛ بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وإلى سنة رسوله ﷺ التي أوصى بها أول امته وآخرهم (...) وغير خاف ما أحدث الناس في دينهم

من الحوادث وما خالفوا فيه طريق سلفهم، ووجدت المتأخرين أكثرهم قد غير وبدل »[١].

وفي رسالته إلى محمد بن فارس يقول: «اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة: الأول الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له. والثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم. الرابع: من اعتقد أن غير هدى النبي ﷺ أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه. الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به رسول الله. السادس: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه. السابع: السحر ومنه الصرف والعطف. الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين. التاسع: ومن اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباعه ﷺ، وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى. العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به »[٢].

ومن رسالته إلى أهل المغرب... بعد أن ذكر بعض آيات القرآن الآمرة بوجوب اتباع سبيل الله وما أنزل سبحانه... وقال:

«إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها الأشراك بالله والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات، وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصح إلا لله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً »[٣].

ونكتفي بهذه النقول من تراث الإمام محمد بن عبد الوهاب محيلين القارىء إلى تراثه الضخم، ونذهب لنقتبس بعض النقول - للمقارنة - من تراث الشيخ عبد الحميد بن باديس إمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

يقول الشيخ ابن باديس عند شرحه[٤] لقوله تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا.. الآيات﴾ ويقول: كما أن علينا أن نتبع سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام التي جاء بها من عند الله تعالى وهي الإسلام - كذلك علينا أن نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علماً وعملاً في أبواب العبادات وأحكام المعاملات وفي تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة وهذه هي سنته التي كان عليها،

(١) من رسالته السابعة والثلاثين: الرسائل الشخصية: القسم الخامس (طبع جامعة الإمام) بتصرف.
(٢) بتصرف من المرجع السابق (رسالة) ٣٢.
(٣) الرسالة رقم ٢٧ المرجع السابق.
(٤) يلاحظ أن تفسير ابن باديس للقرآن كان في أصله دروساً ألقاها في الجامع الأخضر بقسنطينة بالجزائر.

وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم. وكما أن من عدل عن الإسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر - كذلك لم يتخذ مع الرسول سبيل الإسلام يندم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان عن تفريطه، كذلك لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة إذ كل منهما قد ظلم نفسه في سبيل نجاته فالآية وإن كانت في الكافر والمشرك فهي تتناول بطريقة الاعتبار أهل الأهواء والبدع.

ويقول عند شرحه لآية: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾... (سورة الاسراء آية ١٩) يقول: من الناس من يخترع أعمالا من عند نفسه ويتقرب بها إلى الله مثلما اخترع المشكون عبادة الأوثان بدعائها والذبح عليها والخضوع لديها وانتظار قضاء الحوائج منها، وهم يعلمون أنها مخلوقة لله مملوكة له، وإنما يعبدونها كما قالوا لتقربهم إلى الله زلفى، وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب توابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد ﷺ وأصحابه من بعده - فساعيها موزور غير مشكور.

ويقول عند شرحه لقوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك عنه مسئولا﴾ (سورة الاسراء آية ٣٦).

يقول: إن أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسيروأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي ﷺ الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم. إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم. ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب الله فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد المسلمين إليه. أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الإصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عبادته وهم في أشد الحاجة إليه. وقد كان من نتيجة هذا ما نراه في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغي لأهل العلم أيضاً - إذا أفتوا أو أرشدوا - أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته ويعرفوهم منزلته ويجعلوه منهم دائما على ذكر وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ويكون لفتاواهم ومواعظهم (رسوخ في القلوب وأثر في النفوس، فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إن كنتم

للخير تريدون)[١]

ومن الغريب - إلى جانب هذه النصوص التي تبين الاتفاق في الموضوع والمنهج والأسلوب بين الحركتين - أن أول جريدة أنشأها ابن باديس كان أسمها (المنتقد) وكانت جريدة تكاد تكون متخصصة في (انتقاد) الصوفية، وقد أوقفتها فرنسا عام ١٩٢٥م بعد ثمانية عشر عدداً من صدورها، فجعلتها جريدة «الشهاب». فلما قامت الجمعية رسميا سنة (١٩٣١م) (١٢٤٩هـ) كان أول جريدة أصدرتها هي «السنة المحمدية» سنة ١٩٣٣م (١٣٥١هـ) ثم تلتها جريدة «الشريعة المطهرة» بعد أن أغلقت فرنسا الجريدة الأولى، ثم «الصراط السوي» ثم «البصائر».

أفلا تؤكد هذه الجرائد والمجلات - حتى من مجرد عناوينها - ذلك الاتفاق في «الموضوع» على الأقل!!.

أما من ناحية المنهج والأسلوب «فنستطيع أن نلخصه في جملة واحدة.. أنه «المنهج القرآني».

فإن ابن باديس كان على منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب - يؤمن إيماناً لا حدود له بدور القرآن الكريم في تكوين الجيل المنشود على غرار الجيل الذي كونه القرآن في العصور الأولى للإسلام، يقول ابن باديس في مجلة الشهاب: «فإننا نربي - والحمد لله - تلامذتنا على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم، وفي كل يوم. وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها. وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها.

أما كيفية تثقيف هذا الجيل القائد فيشرحها الشيخ الأبراهيمي بقوله: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا - بالمدينة المنورة - في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا[٢].

---

(١) راجع: آثار ابن باديس لمؤلفه د/ عمار الطالبي ١٠٢.

(٢) نقلا عن تركي رابح: الأصالة ٢٤

وبعد:

فإني أعتقد أني قدمت بين يدي «قضية عادلة» أدلة كثيرة، قد تكون في غنى عنها، لكني قدمتها خضوعاً للمنهج العلمي الذي نتعامل به مع الآخرين.

أما يقيني - الذي أؤمن به - فهو أن الحضارة الإسلامية - كل لا يتجزأ، حتى وإن اختلفت ألوانها وظلالها. وبالتالي.. فإن موجاتها الموجبة والسالبة تتحرك وتتفاعل متبادلة التأثير، متخطية - في الوقت نفسه - كل الحواجز السياسية وكل ضغوط الواقع، وكل الأسوار المصطنعة الطارئة.

إنها حضارة «واحدة» تستمد من عقيدة «التوحيد» كيانها الواحد المتعدد العطاء... وهذا ما أؤمن به!!.

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾[1].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة إبراهيم - ٢٤، ٢٥.

رقم الايداع ١٦٥٨/٨٦
الترقيم الدولى ١ — ٥٢ — ١٤٣٠ — ٩٧٧

دار العدالة للطباعة والنشر
٣٩ ش الأخوين .. تابع القبة
دار السلام - القاهرة